مراعاة مقتضى الحال في نصوص من التنزيل (دراسة في الإعجاز البلاغي)

د.عباس حميد السامرائي –كلية التربية للبنات –جامعة الأنبار –
قسم اللغة العربية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.

وبعد: فان مقتضى الحال في البلاغة العربية يشمل مصطلحات البلاغة في علومها الثلاثة.

فالبلاغة تعرف بانها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.(١)

وهذه المطابقة تجري على(علم المعاني)الذي هو(تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره،ليحترز بالوقوف عليها عن الخطا في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره).(٢)

كما تجري مطابقة الكلام على مقتضى الحال على علم البيان الذي هو(معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة،بالزيادة في وضوح الدلالة عليه،وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه).(٣)

فالصلة بين المعاني والبيان وثيقة–كما يتضح من التعريفين،لان كليهما يحترز بالوقوف عليها عن الخطا في مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وتجري هذه المطابقة على علم البديع ايضا فهو: (العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال،ورعاية وضوح الدلالة على ما يراد التعبير عنه).(٤)

وهذه الرعاية المزدوجة في تعريف علم البديع تعني في شقها الاول:علم المعاني،وفي شقها الثاني:علم البيان،ولهذا جعل الذين درسوا الاعجاز البلاغي للقران الكريم كعبد القاهر الجرجاني،والزمخشري،والرازي،جعلوا علم البديع تابعا لعلمي المعاني والبيان.

ومقتضى الحال هو الانسب في تتبع بلاغة القران من حيث دراسة الفاظه ومشاكلة هذه الالفاظ للمعنى،والائتلاف،ومراعاة النظير،وحسن النسق،والمناسبة وغير ذلك من المصطلحات البلاغية التي يظهر عليها انها من المحسنات البديعية الا انها يمكن ان يدرس من خلالها: التقديم والتاخير،والحذف والذكر،والايجاز والاطناب،وغير ذلك،ويمكن ايضا ان يدخل في دراسة هذه المحسنات ماله علاقة بعلم البيان من مصطلحات:كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية.

---

(١) التلخيص:٣٣.
(٢) مفتاح العلوم:٧٧.
(٣) البلاغة عند السكاكي:١٣٢.
(٤) التلخيص:٣٧.

ومن المصطلحات البلاغية التي لها صفة اعجازية في القران الكريم مصطلح:

الائتلاف: وهو جمع امر وما يناسبه من نوعه او ما يلائمه من احد الوجوه.(٥) ويدخل معه: ائتلاف اللفظ في المعنى وهو من تسمية قدامه.(٦)

والى هذا اشار الجاحظ في البيان وقال: (ومتى شاكل-ابقاك الله-ذلك اللفظ معناه،واعرب من فحواه،وكان لتلك الحال وفقا،ولذلك القدر لفقا،وخرج من سماجة الاستكراه،وسلم من فساد التكلف،كان تميناً بحسن الموقع،وبانتفاع المستمع).(٧)

وقال: (ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ،ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء)(٨) .

وقال العلوي: (هو ان تكون الالفاظ لائقة بالمعنى المقصود ومناسبة له،فاذا كان المعنى فخما كان اللفظ الموضوع له جزلا،وان كان المعنى رفيقا،كان اللفظ رقيقا،فيطابقه في كل احواله)(٩) . وقال: (وهذا باب عظيم في علم البديع،وجاء القران الكريم على هذا الاسلوب).(١٠)

وذكر السيوطي هذا النوع الذي تكون الفاظه فيه ملائمة للمعنى المراد،فان كان فخما كانت الفاظه فخمة، أو جزلا فجز له،او غريبا فغريبه،او متداولا فمتداوله،او متوسطا بين الغرابة والاستعمال،فكذلك،نحو قوله تعالى: (وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ).(١١)

(لما كان الركون الى الظالم،وهو الميل اليه والاَعتماد عليه،دون مشاركته في الظلم، وجب ان يكون العقاب عليه دون العقاب على الظالم، فأتى بالمس الذي هو دون الاحراق والاصطلاء،وان كان المس قد يطلق ويراد به الاستئصال بالعذاب وشمول الثواب اكبر مجازا،ولما كان المس اول ألم او لذة يباشرها المحسوس جاز ان يطلق على ما يدل عليه استصحاب تلك الحال مجازا،والحقيقة ما ذكر،وهو في هذه الاية الكريمة على حقيقته).(١٢)

ومنه ايضا قوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب).(١٣) فعدل سبحانه عن الطين الذي اخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز انه خلق ادم منه،منها قوله: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِين).(١٤) وقوله حكاية عن ابليس: (خَلَقْتَنِي مِنْ نَار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِين).(١٥) فعدل عز وجل عن ذكر الطِّين الذي هو مجموع التراب والماء الى ذكر مجرد التَّراب، لانه ادنىً العنصرين واكثفهما لما كان

---

(٥) ينظر:خزانة الاداب:١٣١.
(٦) ينظر: نقد الشعر:١٧١.
(٧) البيان والتبيين:٢/٨،٧.
(٨) م.ن:٣/٣٩.
(٩) الطراز:٣/١٤٤.
(١٠) م.ن:٣/١٤٤.
(١١) هود/١١٣.
(١٢) تحرير التحبير:١٩٦.
(١٣) ال عمران:٥٩.
(١٤) ص/٧١.
(١٥) ص/٧٦.

المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الالهية بما يصغر امر خلقه عند من ادعى ذلك،فلهذا كان الاتيان من لفظ التراب امس بالمعنى من غيرها من العناصر،ولو كان موصفه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود.

ولما اراد–سبحانه–الامتنان على بني اسرائيل بعيسى عليه السلام اخبرهم عنه انه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير تعظيما لامر ما يخلقه باذنه،اذ كان المعنى المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به.(١٦)

فتناسبت لفظة(التراب)وهي اصغر شأناً من الطين،لدلالتها على استصغار امر خلق عيسى عند من ادعى عبادة المسيح وانه الاه،ولما اراد سبحانه تعظيم عيسى عليه السلام جعله يخلق من الطين باذنه سبحانه، فناسبت لفظة الطين امر التعظيم،لانها اللفظة الشائعة في القران الكريم.

ومن هذا النوع ايضا قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ).(١٧) فانه سبحانه انما اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر،لانه اتى بصيغة الاستغراق ،وليس من العناصر الاربعة ما يعم جميع المخلوقات الا الماء، ليدخل الحيوان البحري فيها(١٨) وليس هناك لفظة تؤدي هذا المعنى المقصود غير لفظة(الماء)مع اتساقها في النظم،فاللفظتان: دابة–ماء:شائعتان في الاستعمال متآلفتان.

ومما خرج من الالفاظ الشائعة في القران الكريم الى الغرابة قوله تعالى على لسان احد صناديد قريش: (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً).(١٩) فاختار: (اهلكت)و(لبدا) ولم يقل (انفقت مالا) كما هو الشائع في استعمال القران الكريم. والتعبير عن الانفاق بالاهلاك لما انه لم ينفعه يومئذ.(٢٠) وقال: (مالا لبدا) ولم يقل: مالا كثيرا.

فهذه الالفاظ المختارة لهذا الموضع مناسبة لجو السورة.

فاللبد: الكثير المجتمع من تلبد الشيء اذا اجتمع،ومعنى الاية انه يقول: انه انفق مالا كثيرا،وفي اللبد دلالة على المباهاة والتعاظم في ادعاء المكرمات.

والتعبير بالاهلاك مناسب لجو السورة،فهو مناسب لجو المشاق والشدائد والمحن التي عاناها الرسول ﷺ واصحابه في البلد الحرام،ومناسب مع حسبان الانسان ان لن يقدر عليه احد فيهلكه، ومع ذكر العقبة،ومع ذي المسبغة وهلاكهم من الجوع.

واختيار(اللبد)في الاية مكان(الكثير)اختيار دقيق، فان اللبد–كما ذكرنا–معناه:الكثير المجتمع،وهو متناسب مع اجتماع الكفرة لايذاء الرسول والمسلمين،قال تعالى: (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).(٢١)

---

(١٦) ينظر:الاتقان:٨٨/٢،خزانة الادب:٤٣٧.
(١٧) النور/٤٥.
(١٨) ينظر:البرهان في علوم القران:٤٣٢/٣.
(١٩) البلد/٦.
(٢٠) روح المعاني:١٣٦/٣٠.
(٢١) الجن/١٩.

فاجتماع المال في الاهلاك مناسب لاجتماع الكفرة على الرسول لاهلاكه واهلاك دعوته،وهو حل بهذا البلد.

ثم ننظر جو(الاجتماع) الذي تفيده كلمة(لبد)فالاجتماع شائع في السورة: اجتماع في الوالد وما ولد، واجتماع في العينين،وفي اللسان والشفتين في الة النطق، واجتماع في(النجدين)وليس نجدا واحدا،كما في قوله تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيل...).(٢٢)

وذكر المؤمنين بصيغة الجمع(الذين امنوا)واجتماعهم على التواصي بالصبر والمرحمة: (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) أي يوصي بعضهم بعضا،واجتماع اهل الكفر في جهنم وايصاد النار عليهم(عليهم نار مؤصدة)فكلمة اللبد في معناها على الاجتماع لاتغني عنها كلمة الكثير،وهذا ائتلاف في المعنى، كما هو ائتلاف في النظم عند قراءة السياق: (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ،وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ،وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ،لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ،أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ،يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدا).(٢٣) فالفاصلة هنا متمكنة، وزيادة الف الاطلاق هنا تدل على زيادة تلبد المال ودلالة على التعاظم والمباهات في العطاء.

وكذلك اختيار(النجدين)ههنا مؤتلف مع السياق فضلا عن اتفاق هذه اللفظة في الغرابة فانه لم يقل–السبيل كما هو شائع في القران الكريم،فالنجد الطريق العالي المرتفع والنجد من الارض صلابها وما غلظ منها واشرف وارتفع(٢٤) والنجدين:يراد بهما طريق الخير والشر.(٢٥) وهذا اللفظ متالف مع جو السورة لما فيه من صعود وارتفاع،فهو مناسب للمكابدة والمشقة ومناسب لاقتحام العقبة وما فيه من مشقة.والعقبة:الطريق في الجبل وعر.(٢٦)

والعقبة: استعارة للاعمال الصالحة الشاقة من حيث هي بذل مال تشبيه بعقبة الجبل(٢٧) جاء في روح المعاني: (وهي هنا استعارة لما فسرت به من الاعمال الشاقة المرتفعة القدر عند الله تعالى)(٢٨) ومعنى الاية: (فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ).(٢٩) لم يشكر تلك الايادي والنعم بالاعمال الصالحة من فك الرقاب (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ،فَكُّ رَقَبَةٍ).(٣٠) واطعام اليتامى والمساكين: (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ).(٣١)

---

(٢٢) الانسان/٣.
(٢٣) البلد/الايات/٦،٥،٤،٣،٢،١.
(٢٤) لسان العرب(نجد).
(٢٥) التفسير الكبير:١٨٤/٣٠.
(٢٦) لسان العرب-(عقب).
(٢٧) البحر المحيط:٤٧٦/٨.
(٢٨) روح المعاني:١٣٧/٣٠.
(٢٩) البلد/١١.
(٣٠) البلد/١٣،١٢.
(٣١) البلد/١٤.

والمعنى: ان الانفاق على هذا الوجه هو الانفاق المرضي النافع عند الله،لا ان يهلك مالا لبدا في الرياءوالفخار، فيكون مثله كمثل ريح فيها صر اصابت حرث قوم.(٣٢)

ثم ان اختيار لفظة(العقبة)بعد (النجدين اختيار بديع: اذ ان ذكرها بعد النجدين جعل الاستعارة في الذروة العليا من البلاغة،ذلك ان النجد،وهو الطريق العالي المرتفع يؤدي الى العقبة،وهي الطريق الوعر في الجبل،فان العقبة تقع في النجاد غالبا.)وفي هذه الاستعارة دلالة على انه لم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه التي لايصل اليها حتى يقتحمها بالاحسان الى خلقه بفك الرقبة وهو تخليصها من الرق ليخلصهم الله من رق نفسه ورق عدوه، واطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة ، وبالاخلاص له سبحانه بالايمان الذي هو خالص حقه وهو تصديق خبره وطاعة امره وابتغاء وجهه وبنصيحة غيره ان يوصيه بالصبر والرحمه ويقبل وصية من اوصاه بها فيكون صابرا رحيما في نفسه معينا لغيره على الصبر والرحمة(٣٣) وعبارة : (فك رقبة) مؤتلفة مع السياق في معنى الشدة التي يكون عليها حال العبد والفك : استعارة للرق الذي هو كالقيد ، وسمي المرقوق رقبة لانه بالرق كالاسير المربوط في رقبته(٣٤) وكذلك تالفت الفاظ : مسغبة / مقربة / متربة

فالمسغبة : المجاعة ، وهي الجوع العام ، ولذا قيل: ان في يوم فيه الطعام عزيز(٣٥) والمتربة : يمكن حملها على الكناية عن الفقر والالتصاق بالتراب ويمكن حملها على الحقيقة أي : (هم المطروحون على ظهر الطريق قعودا على التراب لا بيوت لهم)(٣٦) فانظر أي مناسبة وائتلاف جمع بين الفاظ هذه السورة .وما ابلغه من كلام . الا يجعلنا نتسابق لاجتياز العقبة ، وذلك من فضله ومنته علينا ان شاء الله تعالى .

ومن ائتلاف اللفظ في المعنى قوله تعالى : (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)(٣٧) هذه الاية امتداد لوصف المنافقين(٣٨) جاء قبلها: (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ).(٣٩) فهذه الاية تصفهم: بالخوف من ان يظهروا ما هم عليه فيقتلوا.(٤٠)

وصورت الايتان الهزيمة داخل نفوسهم،واظهرها التعبير لوحة تصويرية وبسط عليها معنى الهزيمة والخوف.

فخرج المعنى في صورة جماعات من الناس خائفة زائغة العين لما سيطر عليها من الرعب،فهي تنقذف هنا وهناك بحثا عن المأمن والمهرب في حركات غريبة عجيبة فانهم(لو وجدوا شيئا من هذه

---

(٣٢) الكشاف:٣٣٩/٣،وينظر:لمسات بيانية:١٩٠.
(٣٣) التبيان في اقسام القران : ٢٧
(٣٤) فتح القدير : ٤٣٢/٥
(٣٥) روح المعاني : ١٣٨/٣٠
(٣٦) البحر المحيط : ٤٧٦/٨
(٣٧) التوبة / ٥٧
(٣٨) ينظر : تفسير القرطبي : مج١٦٤/٤
(٣٩) التوبة/٥٦.
(٤٠) ينظر:م.ن.ويفرقون في الاية:أي:من الفرق،وهو الخوف.

الاشياء المذكورة لولوا اليه مسرعين هربا من المسلمين)(٤١) . وقد يحسب صاحب النظرة العجلي ان هذه الكلمات الثلاث: ملجأ،مغارات،مدخل،مترادفة المعنى،ولكنها في الحقيقة ليست كذلك،بل كل منها يصور شكلا معينا للملاذ الذي يبحث عنه المنهزم والخائف،بدءا من الشكل الطبيعي المالوف،وهو الملجا الاعتيادي من دار او غرفة،او حصن،او جماعة من الناس،الى الشكل الذي لايالفه ويرتضيه الا من اشتد خوفه،وهو المغارة في باطن الارض،او بطن جبل،الى الشكل الذي هو ابعد في القبول والالف من كليهما،وهو المدخل،أي المكان الضيق الذي لايكاد يستطيع هذا الخائف ان يقتحمه الا بجهد، ولا يكاد يستطيع ان يستقر فيه الا تضاؤلا والتصاقا(٤٢) وانظر كيف تصور كلمة(مدّخلا)بوزنها وجرسها،التجاء الخائف الى أي مكان يستره عن الانظار وبقوله: (لولوا اليه) ثم فيما تتركه عبارة(وهم يجمحون)من الصورة الساخرة للخائف وشدة هلعه.

ثم ننظر كيف جاء هذا الكلام البليغ على اسلوب(الترقي): وهو ان يذكر معنى ثم يردف بابلغ منه في ترتيب الاشياء(٤٣) فقد تقدم: الملجا ثم تبعه باكثر منه في الضيق وهو المغارات ثم الابلغ منه وهو الاكثر ضيقا وجاء المدخل في حسن نسق في المعنى .

ومن تصوير الالفاظ لسيرة المنافقين ايضا على طريقة من السخرية قوله تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ).(٤٤)

يقول د.احمد احمد بدوي: (تستوقفنا كلمة(استوقد نارا)فنتبين فيها حال رجل قد احاطت به حلكة الظلام،فهو يطلب جاهدا نارا تضيء له مسالك السبيل،والسين والتاء تدلان على هذا البحث القوي والطلب الجاد).(٤٥) وفي سياق ايات المنافق هنا ما يظهر ان المنافق في هذه الصورة البلاغية يريد ان يظهر الايمان على صورة من الغرور الزائد والخداع،ويخفي صورة النفاق في داخله،فهو خائف من البقاء في الظلام،فهو يريد ان يستوقد نارا،أي يزيد في ضوئها الذي يامن له الطريق، ويرى مسالكه،لذلك اسند الايقاد الى النار،ولم يسنده الى مادة الايقاد، وهذا يناسب حيرته الزائدة في نفسه،ويناسب غروره الزائد باسلامه ظاهرا على صورة من الخداع، جاء في تفسير القرطبي: (ان تمثيل المنافق بالمستوقد،لان بقاء المستوقد في ظلمات لايبصر، كبقاء المنافق في حيرته وتردده)(٤٦) .فهم غير مؤمنين وهم مخادعون،وهذا ما عليه السياق القرآني قبل العبارة القرانية المذكورة وبعدها،فقبلها اول حديث القران عن هذا القسم من الناس بقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ،يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ).(٤٧) فيلاحظ انه قال:

---

(٤١) تفسير القرطبي مج١٦٦/٤.
(٤٢) ينظر:في ظلال القران:٢٣٩/٤،من روائع القران:١٦٧.
(٤٣) ينظر:عروس الافراح:٤٧٣/٤،البرهان في علوم القران:٢٩٦/٣.
(٤٤) البقرة/١٧.
(٤٥) من بلاغة القران:٣٢.
(٤٦) تفسير القرطبي:٢١٢/١.
(٤٧) البقرة/٨،٩.

(ومن الناس من يقول) انه مجرد قول ظاهر يخادعون به،ثم انهم قالوا: (امنا بالله وباليوم الاخر)والجواب كان على صورة من التوكيد لقوله تعالى: (وما هم بمؤمنين) باسلوب القصر والتوكيد. اما ما جاء بعد العبارة،فمنه قوله تعالى: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا).(٤٨) انها صورة من الحيرة على طريق من السخرية،ثم تكتمل الاية بقوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).فجمع البصر في الموضعين من السياق لشديد حاجتهم الى البصر اكثر من السمع في مثل هذا الموقف، وليناسب تعبير القران عن بقائهم حائرين في الظلام بقوله: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ). فقال: (اَضاءت ما حوله) باستخدام (ما) ولم يقل (الذي) لما في الذي من تحديد المكان الذي يلي، على خلاف(ما)التي توحي بالسعة لابهامها، والموقف يحتاج الى سعة في الاضاءة، وقال: (ذهب الله بنورهم)فاسند ذهاب نورهم اليه تعالى، تمكينا منهم، وقال: (بنورهم)والمطابق ان يقول: بضيائهم، لقوله: (فلما اضاءت ما حوله) لكنه عدل عن الضياء الى النور، لان الضياء اعم من النور، لقوله عز وجل: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً).(٤٩) فلو نفي الضياء لم يلزم منه نفي النور.(٥٠)

أي:لو قال: ذهب بضوئهم،لاوهم الذهاب وبقاء ما يسمى نورا،والغرض ازالة النور عنهم بالكلية،الا ترى كيف ذكر عقيبه(وتركهم في ظلمات لايبصرون)،والظلمة عبارة عن عدم النور،وكيف جمعها،وكيف نكرها،وكيف اتبعها ما يدل على انها ظلمة شديدة وهو قوله: (لايبصرون).(٥١)

وقال: (ذهب الله بنورهم)ولم يقل: اذهب الله نورهم،اذ هناك فرق بين اذهب وذهب،ان معنى اذهبه:ازاله وجعله ذاهبا،ويقال:ذهب به اذا اصطحبه،ومعنى(به)معه،والمعنى: اخذ الله نورهم وامسكه،فهو ابلغ من الاذهاب.(٥٢)

وفي عبارة(وتركهم) ايحاء بعدم المبالاة، فالواو تشعر مع الفعل (ترك)بانهم لاينتفع بهم كالاشياء المتروكة.فننظر بعد ذلك كيف تناسبت الالفاظ وتالفت على غاية من البلاغة والاعجاز؟

ويمكن ان يطلق على ائتلاف الالفاظ والمعاني بـ(حسن النسق):

ومن حسن النسق في ترتيب المعاني قوله تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ).(٥٣) حيث وصف كل فريق بما يناسبه،وصف الكافر بالاعمى والاصم،ووصف المؤمن بالبصير والسميع،لان الحديث عنهما في سياق الايات، فعن الكفار قال: (لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ).(٥٤)

---

(٤٨) البقرة/٢٠.
(٤٩) يونس/٥.
(٥٠) الفوائد في مشكل القران:٣٧.
(٥١) تيجان البيان في مشكلات القران:٦٢.
(٥٢) ينظر: الكشاف:٢٠٠/١،التفسير الكبير:٧٦/٢.
(٥٣) هود/٢٤.
(٥٤) هود/١٦.

وقال: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً).(٥٥)

ثم قال: (أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ،الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ).(٥٦) وقال فيهم ايضا: (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ).(٥٧) فوصفهم بعدم سماع الحق وعدم البصيرة والنظرة.

وعن المؤمنين قال: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).(٥٨) وقال قبل ذلك اشارة الى الفريقين (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ).(٥٩) ثم ذكر: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا).(٦٠)

وعن ترتيب الفاظ هذه الاية قيل: لم لاقيل: مثل الفريقين كالاعمى والبصير،والاصم والسميع؟

فالسائل يرى: ان الاعمى يناسبه البصير،والاصم يناسبه السميع في المقابلة؟

وقد فاته في هذا امران،الاول: في المعنى،فانه سبحانه: (لما ذكر انسداد العين،اتبعه بانسداد السمع،وبعد ذلك لما ذكر انفتاح البصر اعقبه بانفتاح السمع،فما تضمنته الاية هو الانسب في المقابلة والأتم في الاعجاز)(٦١)

والاخر في اللفظ: فان لفظة(الأعمى)على وزن لفظة(الأصم)و(البصير)على وزن(السميع)

ومثل هذا في ترتيب المعاني على حسن نسق قوله تعالى: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى،وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى).(٦٢)

ففي هذه الاية قد يخفى وجه الجمع بين(تجوع)و(تعرى)وبين(تظما وتضحى)فقد يبدو ان الانسب هو الجمع بين الجوع والظما وبين العري والضحى. بل روعيت المناسبة بين اللبس والشبع في عدم الاستغناء عنهما،وانهما من اصول النعمة،وبين الاستظلال والري في كونهما تابعين لهما ومكملين لمنافعهما وهذا ادخل في الامتنان لما في تقديم اصول النعم،وارداف التوابع من الاستيعاب.

وقد ذكر هذا احمد بن المنير تحت عنوان(قطع النظير عن النظير) وقال: (في الاية سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير،وذلك انه قطع الظما عن الجوع، والضحو عن الكسوة مع بينهما من التناسب،والغرض من ذلك،تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها،ولو قرن كلا بشانه لتوهم المعدودات نعمة واحدة).(٦٣)

---

(٥٥) هود/١٨.
(٥٦) هود/١٩،١٨.
(٥٧) هود/٢٠.
(٥٨) هود/٢٣.
(٥٩) هود/١٧.
(٦٠) هود/٢٤.
(٦١) البرهان في علوم القران:٣/٥٢٢.
(٦٢) طه/١١٩،١١٨.
(٦٣) الانتصاف على هامش الكشاف:٣/٧٢.

وان في هذه الاية كذلك تناسب الفواصل،ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل: إنّ لك الاتجوع وتظما،لانتثر رؤوس الآي،لذلك جعله السيوطي مع نوع من الطباق يسمى ترصيع الكلام:وهو اقتران الشيء بما يجتمع معه في قدر مشترك،وذكر قوله تعالى: (ان لك الا تجوع..)الاية.وعلق عليها بقوله:جاء بالجوع مع العري،وبابه ان يكون مع الظما،وبالضحى مع الظما،وبابه ان يكون مع العري،لكن الجوع والعري اشتركا في الخلو،فالجوع خلو البطن من الطعام،والعري خلو الظاهر من اللباس،والضحى والظما اشتركا في الاحتراق،فالظما احتراق الباطن من العطش،والضحى احتراق الظاهر من حر الشمس(٦٤) ثم انه قال في صدر الاية: (ان لك)وفي اخرها: (وانك)فالاولى اكثر تناسبا لما هو اهم،والثانية اقل من ذلك،وفي(الا تجوع)توكيد للعهد، وقد خلا ختام الاية من ذلك،فانه سبحانه لما جمع بين الطعام واللباس،وانهما من اصول النعمة من الله تعالى مشيرة الى منة الله وفضله على الانسان قال: (ان لك)كقولك لصديق: ان لك علي عهدا الا افرط في صداقتك،وقدم معه الجوع والعري–ولما جمع بين الاستظلال والري، وانهما تابعان يصدران عن الانسان، قال: (وانك..)واخر معها الاستظلال والري..والله اعلم.

ولابد لحسن النسق في الالفاظ والمعاني من جامع تنعقد بموجبه الاسباب في الجمع،كالجمع بين الابل والسماء والجبال والارض في قوله تعالى: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأِبِلِ كَيْفَ خُلِقتْ،وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ،وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَت،وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ).(٦٥) بالنسبة الى اهل الوبر، فان جل انتفاعهم في معاشهم من الابل،فتكون عنايتهم مصروفة اليها، وانتفاعهم منها لايحصل الا بان ترعى وتشرب،وذلك بنزول المطر،فيكثر تقلب وجوههم في السماء.ثم لابد لهم من ماوى يؤويهم وحصن يتحصنون به،ولا شيء لهم في ذلك كالجبال،ثم لاغنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من ارض الى سواها،فاذا فتش البدوي في خياله وجد صور هذه الاشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور،بخلاف الحضري،فاذا تلا قبل الوقوف على ما ذكرنا ظن النسق لجهله معيبا(٦٦) فلا بد لمن يريد ان يعرف اسباب الجمع والتنسيق والائتلاف بين الالفاظ في مواضعها ان يمتلك في نفسه من الطباع السليمة والتدرب على ما جاء من كلام العرب، في شعرهم ونثرهم في مراعاة الالفاظ ومعانيها ومواقع اللبس فيها، واشتباه بعضها ببعض والتمرس في النظر في القران ومعرفة اشباهه ونظائرة ووجه الجمع والاختلاف فيهما وغير ذلك.

وقد يكون حسن النسق في مراعاة الحروف ومعانيها، نحو قوله تعالى: (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ،فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ،أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً،ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً،فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً،وَعِنَباً وَقَضْباً،وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً،وَحَدَائِقَ غُلْباً،وَفَاكِهَةً وَأَبّاً،مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ،فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ،يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ،وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ،وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ).(٦٧)

---

(٦٤) معترك الاقران:٣١٥/١.
(٦٥) الغاشية/١٧-٢٠.
(٦٦) ينظر:الايضاح:١٦٤-التلخيص:١٩٤.
(٦٧) عبس/٢٣-٣٦.

قال التنوخي: (لما زجر بـ(كلا)واخبر بان المرء لم يقض ما امر به عقب الزجر بالامر،فاتى بالفاء مستانفا للجملة الاخرى وتعقيبا للزجر بالامر،وتنبيها على ان غفلة الانسان مما ينبغي له سبب لان يوعظ،فالفاء هنا دلت على الاستئناف والتعقيب والتسبب،وعطف شق الارض على صب الماء بـ(ثم)اذ لابد بينهما من مهلة،وقال: (فانبتنا)اذ انشقاق الارض بالنبات فلا مهلة بينهما،ثم عطف النبات بعضه على بعض بالواو،لان فيه ما ينبت بعضه مع بعض،وما ينبت بعضه عقيب بعض،وما يتقدم بعضه على بعض،ويتاخر من غير تعقيب،والواو تستعمل في هذه المواضع كلها،اذ هي لمجرد الاشتراك.ثم قال: (فاذا جاءت الصاخة)وليس وقت مجيئها عقيب ما قبلها،فهي لتعقيب الوعظ بعضه ببعض، اذ هو من توابع الزجر،وليس في هذا العطف تعرض لتوالي الاوقات،ثم قال: (يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه)فعطف بالواو، لانه يفر من المفرور منه اذا لقيه ولقاؤه لهم قد يكون في وقت واحد، وقد يكون في اوقات مختلفة،والواو هي الجامعة لذلك كله،وقدم الاخ على الام والام على الاب،والاب على الصاحبة، والصاحبة على الابناء،انتقالا من كل واحد الى من هو اعز منه،واشد حفاوة،والاب وان كان كالام،او مرجوحا من جهة البر، فانه يرجى نصره اكثر من الام،والمحافظة على الرجال اشد منها على النساء،واخر الصاحبة عنه،وان كانت لايرجى نصرها، لزيادة الانس والمودة التي جعل الله بينهما، واخر البنين عنها،لانه الغاية والنتيجة، وزيادة حبهم بالطبع على كل احد)(٦٨) واخذ د. فاضل السامرائي هذه المعاني في التقديم والتاخير في الفاظ الاية المذكورة،وربط بينها وبين جو السورة فقد بدا في هذه الاية في(عبس)بذكر الاخ فالام فالاب فالصاحبة ثم الابناء في الاخير.

وسبب ذلك والله اعلم ان المقام في(عبس)مقام الفرار والهرب،قال تعالى: (يوم يفر المرء)والانسان يفر من الاباعد اولا ثم ينتهي بالصق الناس به.

ثم وازن بين هذه المعاني في تقديم الالفاظ وبين ما جاء في سورة المعارج من تقديم الابناء فالصاحبة،فالاخ،فالفصيلة،ثم انتهى باهل الارض اجمعين) : في قوله تعالى: (يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ،وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ،وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ،وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ،كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ،نَزَّاعَةً لِلشَّوَى،تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى،وَجَمَعَ فَأَوْعَى،إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً).(٦٩)

فالسياق في سورة المعارج يختلف عما في (عبس) ذلك انه في المعارج مشهد من مشاهد العذاب،فقد جيء بالمجرم الى النار،وهذا المجرم يود النجاة بكل سبيل ولوا ادى ذلك الى ان يبدا بابنه فيقذف به مكانه،وهو لايهمه ان يفتدي بالناس اجمعين،لانه مجرم،فقد ورد في السياق ان هذا المفتدي مجرم،وليس مرءا اعتياديا،والمجرم مستعد لفعل أي شيء لينجو،وورد في السياق قبل هذا المشهد: (وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً).(٧٠) والحميم: القريب فبدا باقرب القرابة وهم الابناء ثم انتهى الى الاباعد وهم من في الارض جميعا،وورد(ان الانسان خلق هلوعا)ومن اظهر مظاهر هذا الهلع ان يتصرف بما يناسب هذا الهلع كأن يبدا باقرب الناس ليفتدي بهم من العذاب.جاء في (انوار التنزيل): ان ذلك

---

(٦٨) الاقصى القريب:
(٦٩) المعارج/١٢-١٩.
(٧٠) المعارج/١٠.

(لبيان ان اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ به الى حيث يتمنى يفتدي باقرب الناس اليه واعلقهم بقلبه فضلا عن ان يهتم بحاله ويسال عنها)(٧١) .

لذلك اختلف التقديم والتاخير في ترتيب الالفاظ في الموضعين، فقد وضع كل مشهد في السورة المناسبة له.فقد وضع مشهد الفرار في السورة التي تبدأ بـ(عبس وتولى)والتولي نوع من انواع الفرار من الشيء والانصراف عنه،والعبوس ايضا نوع من انواع الفرار النفسي من الشيء بعكس الالفة والانشراح له.

والتلهي عن الشيء هو فرار منه في قوله تعالى: (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى،وَهُوَ يَخْشَى،فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى).(٧٢)

فوضع مشهد الفرار الاكبر في الاخرة في(عبس)مناسب لجو السورة ايما مناسبة،ووضع مشهد العذاب الاكبر (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى،نَزَّاعَةً لِلشَّوَى،تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى،وَجَمَعَ فَأَوْعَى)في سورة المعارج التي تبدا بقوله: (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ،لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ).انسب شيء واحسنه(٧٣) .

فوضع مشهد العذاب في السورة التي تبدا بالعذاب(عذاب واقع)وتختتم بالوعيد بالعذاب(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ).(٧٤)

ووضع مشهد الفرار في السورة التي تبدا بنوع من انواع الفرار(عبس وتولى)وختمت بالفرار (يوم يفر المر..) (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)(٧٥) . فما احسن اختيار الالفاظ في مواضعها فلو تقدمت لفظة او تاخرت لاختَلّ المعنى المراد–والله اعلم–وهو–سبحانه–ينبهنا في مثل هذه الايات وغيرها الى اعجاز كتابه العزيز.

وتريب الآيات في الآيتين السابقتين من سورتي (المعارج) و (عبس) جاءتا وفق اسلوبي (التنزيل) و(الترقي) وهما من اساليب العرب .

فالتنزيل: هو ترتيب الاشياء نزولا من الاعلى الى الادنى في الوجوه المرادة،نحو: هذا الامر لايعجز السلطان ولا الوزير.

اما(الترقي): فهو الانتقال صعودا من الادنى الى الاعلى في الوجوه المرادة.(٧٦)

أي: يذكر معنى ثم يردف بابلغ منه،كقولك:عالم تحرير شجاع باسل،ونحو قوله تعالى: (الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّر)(٧٧) أي: قدر ما يوجد ثم مثله. وقوله تعالى: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى).(٧٨) أي: ولا من هو اقرب مودة،فكيف بالابعد.

---

(٧١) انوار التنزيل: ٧٥٩،وانظر:روح المعاني:٦٠/٢٩.
(٧٢) عبس/٨-٩.
(٧٣) ينظر: لمسات بيانية:١٤٢.
(٧٤) المعارج/٤٤.
(٧٥) عبس/٣٨.
(٧٦) ينظر: المصطلحات البلاغية-الترقي-التنزيل.
(٧٧) الحشر/٢٤.
(٧٨) البقرة/١٢٠.

ولكن شتان بين كلام العرب في هذا الشان في عبارة او عبارتين، وبين كلام معجز كله تختار الفاظه لتناسب موضع السورة او لتناسب موضعا اخر مشابه في عموم القران. واليك مثلا من حسن النسق في التقديم والتاخير ايضا ما جاء في قوله تعالى في سورتين من القران. فقال في سورة الانفال: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)(٧٩) بتقديم: (اموالهم وانفسهم)وتاخير: (في سبيل الله) وفي سورة براءة: بتقديم: (في سبيل الله).(٨٠)

لان في سورة الانفال تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة في قوله:(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا).(٨١) وقوله: (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ)(٨٢) أي: من الفداء (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ)(٨٣) فقدم ذكر المال.

وفي براءة تقدم ذكر الجهاد. وهو قوله: (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ)(٨٤) وقوله: (كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)(٨٥) .فقدم ذكر الجهاد في هذه الاية في(الانفال)ثلاث مرات،فاورد في الاولى: (باموالهم وانفسهم في سبيل الله)وحذف من الثانية: (باموالهم وانفسهم)اكتفاء بما في الاولى،وحذف من الثالثة: (باموالهم وانفسهم)وزاد حذف(في سبيل الله)اكتفاء بما في الايتين قبلها.(٨٦) فما اعظم هذا القران في ترتيب الفاظه.

ومن حسن النسق في التقديم والتاخير ايضا قوله تعالى في سورة الانبياء: (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ).(٨٧)

وفي سورة نوح: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً،لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً).(٨٨)

جاء في التعبير القراني:قدم الفجاج على السبل في الاية الاولى،واخرها عنها في اية نوح،وذلك ان الفج في الاصل هو الطريق في الجبل او بين الجبلين،فلما تقدم في اية الانبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدم الفجاج لذلك،بخلاف اية نوح فانه لم يرد فيها ذكر للجبال فاخرها.(٨٩)

هذا التعليل وارد من جانب،ومن جانب اخر فان تقديم(فجاجا)وتاخير(سبلا)لتتفق لفظة(سبلا)مع فاصلة الاية:لعلهم يهتدون في المعنى وتتفق مع فواصل السورة وفواصل السورة على هذا النسق،وان تقديم(سبلا)في اية نوح وتاخير(فجاجا)لتتفق اللفظة مع فواصل السورة أيضا فقبلها(وَجَعَلَ

---

(٧٩) الانفال/٧٢.
(٨٠) براءة/٢٠.
(٨١) الانفال/٦٧.
(٨٢) الانفال/٦٨.
(٨٣) الانفال/٦٩.
(٨٤) التوبة/١٦.
(٨٥) التوبة/١٩.
(٨٦) ينظر:اسرار التكرار:٩٥.
(٨٧) الانبياء/٣١.
(٨٨) نوح/١٩.
(٨٩) التعبير القراني:

الشَّمْسَ سِرَاجاً،وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً،ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً،وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً،لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً).(٩٠)

ثم لما ذكر الرواسي ان تميد بهم ذكر انه سبحانه جعل فيها فجاجا سبلا كأن التعبير يشير الى انه جعل الفجاج لمجرد الطريق بينما يشير التعبير في اية نوح التي تصف الطريق في الارض بأنّ السبيل فيها طريق واسعة لحركة الانسان للعمل اكثر من حركته في فجاج الجبال لذلك قال:لتسلكوا وقال في اية الانبياء (وجعلنا)فاقرأ التعبيرين في سياقهما في السورتين تجد ذلك،فان بلاغة القران ابلغ من أي كلام سواه.

وعبارة(لعلهم يهتدون)تحتمل معنيين: الاول فيها تعلق ظاهر مع السبيل، مثل قوله(وبالنجم هم يهتدون)ومعنى ثان وهو المراد–والله اعلم–وهو الهداية والموعظة بايات الله الدالات على عظيم صنعه،لذلك قال(لعلهم)وبهذا يحصل في هذه العبارة معنى كنائي بديع والعبارة على الاستئناف–والله اعلم– .

فلو قيل في اية الانبياء بدل(فجاجا سبلا)(سبلا فجاجا)وقيل في اية نوح: بدل(سبلا فجاجا)فجاجا سبلا لاختلف المعنى وانتثر عقد النظم.

لذلك يقول ابن الاثير في قوله تعالى: (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ،وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ،وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ).(٩١)

فالأول عطفه بالواو التي هي للجمع،وتقديم الاطعام على الاسقاء، والاسقاء على الاطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم، فاكد حسن سياق الالفاظ في تالف بعضها مع بعض. وقال: (ثم عطف الثاني بالفاء(واذا مرضت فهو يشفين)لان الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من احدهما،ثم عطف الثالث بـ(ثم)التي هي للتراخي.ولو غير نسق الكلمات لصح المعنى الا انه لايكون كمعنى الاية،اذ كل شيء منها قد عطف بما يناسبه،ويقع موقع السداد منه)(٩٢) . بعد ذلك لايمكن ان تنثر هذه الايات المتلاحمات لتعطي صورة من البلاغة الا ماكانت عليه من النظم. فيتفق اللفظ والمعنى في تادية المعنى المطلوب.

وقد ينفرد المعنى في سياق الايات ولا يقع في التقديم والتاخير لمجرد الالفاظ كبير فرق. نحو قوله تعالى في سورة البقرة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).(٩٣)

---

(٩٠) نوح/الايات:١٦-٢٠.
(٩١) الشعراء/٧٩-٨١.
(٩٢) المثل السائر:٥٣/٢.
(٩٣) البقرة/٢٦٤.

وقوله في سورة ابراهيم: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ).(٩٤)

فقال في اية البقرة: (لا يقدرون على شيء مما كسبوا)فقدم الشيء واخر الكسب. وقال في اية ابراهيم: (لايقدرون مما كسبوا على شيء)فقدم الكسب واخر الشيء. وذلك ان اية البقرة في سياق الانفاق والصدقة، والمنفق معط وليس كاسب، ولذلك اخر الكسب فقال: (لايقدرون على شيء مما كسبوا)

واما الثانية فهي في سياق العمل ، والعامل كاسب،فقدم الكسب فاقتضى المعنى ذلك في هذا التقديم والتاخير ومثل هذه الايات تحتاج الى كبير تأمل وفرط وتدبر،فلا تفيد ولاتنفع مع هذه البلاغة على طولها وعرضها الا ان يتامل فيها القارى ويعيد ويكرر على حسن طبع في نفسه وقدرة على التعامل مع ايات جاءت لتنبه على الاعجاز واي اعجاز!.

ومن ائتلاف الالفاظ في العطف ايضا قوله تعالى في سورة النساء: (خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).(٩٥) قال: (وذلك)بالواو وفي سورة التوبة: (خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).(٩٦) بغير الواو.

لان الجملة اذاوقعت بعد جملة اجنبية لاتحسن الا بحرف العطف، وان كان في الجملة الثانية ما يعود الى الاولى حسن اثبات حرف العطف،وحسن الحذف اكتفاء بالعائد. ولفظ(ذلك)في الايتين يعود الى ما قبل الجملة،فحسن الحذف والاثبات فيهما.

ولتخصيص اية النساء(بالواو)وجهان لم يكونا في اية التوبة.

احدهما: موافقة لما قبلها.وهي جملة مبدوءة بالواو،وذلك قوله(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ)(٩٧)

والثاني: موافقة لما بعدها،وهو قوله: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ).(٩٨) فقال: (وله) بعد قوله: (خالدا فيها).

وفي براءة: (اَعد لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) بغير واو،ولذلك قال: (ذلك)بغير واو(٩٩) فاتفقت الالفاظ مع ما قبل الايتين وما بعدهما في دقة من البلاغة في ذكر حرف العطف في موضع،وحذفه في موضع اخر موافقة للسياق.

ومن هذه الصورة من صور الائتلاف في الحذف والذكر قوله تعالى في سورة الانعام: (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ).(١٠٠) وفي سورة الشعراء: (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِم).(١٠١) لان سورة الانعام متقدمة، فقيد التكذيب بقوله: (بالحق لما جاءهم)ثم قال: (فسوف ياتيهم)على التمام.

---

(٩٤) ابراهيم:١٨.
(٩٥) النساء:١٣.
(٩٦) التوبة/٨٩.
(٩٧) النساء/١٣.
(٩٨) النساء/١٤.
(٩٩) ينظر:اسرار التكرار:٥٥.
(١٠٠) الانعام/٥.
(١٠١) الشعراء/٦.

وذكر في الشعراء : (فقد كذبوا)مطلقا، لان تقييده في سورة الانعام يدل عليه،ثم اقتصر على السين في الشعراء بدل سوف ليتفق اللفظان على الاختصار(١٠٢) الا تلاحظ ان هنالك دقة بالغة في تناسب ايتين في سورتين تناسبا عجيبا،فقد حذف هنا ما ذكر هناك لان النظم يقتضي ذلك. ولندقق قراءة الامثال والأشباه فانها ليست بالسهلة فمن رام اجتناء الشهد تحمل لسع ابر النحل.

ومن مقتضى الحال في ائتلاف الالفاظ في الذكر والحذف قوله تعالى في سورة النساء: (فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ).(١٠٣) وزاد في سورة المائدة (منه)في قوله: (فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).(١٠٤)

فزيادة (منه) في (المائدة)وعدم ذكرها في (النساء)لان المذكور في النساء بعض احكام الوضوء والتيمم، فحسن الحذف،والمذكور في المائدة،جميع احكامها،فحسن الاثبات والبيان.(١٠٥)

فمقتضى الحال هنا ليس في نظم الالفاظ حسب وانما في المعنى الذي اقتضاه السياق في ورود الاحكام في السورتين.

وقد يكون مقتضى الحال للنظم وتجاور الالفاظ، نحو قوله تعالى في سورة البقرة: (وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُم).(١٠٦) بزيادة (من)موافقة لما بعدها، قوله تعالى: (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ)(١٠٧) .وقولهً في الاية التي تليها: (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ).(١٠٨) فتكررت العبارة ثلاث مرات متتاليات.(١٠٩)

ويظهر ان(منً)الزائدة قد اكتنفت الايات السابقة واللاحقة لعبارة(وما تنفقوا من خير)نحو الاية السابقة لها: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ).(١١٠) وقوله: (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ).(١١١) وقوله: (وَمَا تَفعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ).(١١٢) وقوله: (قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ ..... وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ).(١١٣)

---

(١٠٢) ينظر:اسرار التكرار:٦٤.
(١٠٣) النساء/٤٣.
(١٠٤) المائدة/٦.
(١٠٥) م.ن:٥٥.
(١٠٦) البقرة/٢٧١.
(١٠٧) البقرة/٢٧٢.
(١٠٨) البقرة/٢٧٣.
(١٠٩) ينظر:اسرار التكرار:٤٥.
(١١٠) البقرة/٢٧٠.
(١١١) البقرة/١١٠.
(١١٢) البقرة/١٩٧.
(١١٣) البقرة/٢١٥.

ثم وجدت ايضا امثال هذا الاسلوب مع(من)منتشرة في السورة من اولها الى اخرها: نحو: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ).(١١٤) وقوله: (مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ).(١١٥) وقوله: (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ)(١١٦) وقوله: (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) (١١٧) بينما قال في اية اخرى: (قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا)(١١٨) دون (من)وقوله (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِك)(١١٩) . بينما قال في اية اخرى: (فَمَن اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِك)(١٢٠) دون(من)وقوله: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِك).(١٢١) وقوله: (ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ)(١٢٢) وقوله: (وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُل)(١٢٣) وقوله: (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ).(١٢٤) وقوله: (وَمَا يُعَلِّمَان مِنْ أَحَدٍ ...وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ....مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ).(١٢٥) وقوله: (أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ)(١٢٦) وقوله: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ).(١٢٧) وقوله: (يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ .... مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ).(١٢٨) وقوله: (مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ).(١٢٩) وقوله: (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي)(١٣٠) وقوله: (وَلَئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ).(١٣١) بينما قال في اية اخرى: (وَلَئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ)(١٣٢) وقوله: (مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ)(١٣٣) وقوله: (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ).(١٣٤)

---

(١١٤) البقرة/٢٣.
(١١٥) البقرة/٢٧.
(١١٦) البقرة/٥١.
(١١٧) البقرة/٥٦.
(١١٨) البقرة/٢٥٩.
(١١٩) البقرة/٦٤.
(١٢٠) البقرة/١٧٨.
(١٢١) البقرة/٧٤.
(١٢٢) البقرة/٧٥.
(١٢٣) البقرة/٨٧.
(١٢٤) البقرة/٩٢.
(١٢٥) البقرة/١٠٢.
(١٢٦) البقرة/١٠٥.
(١٢٧) البقرة/١٠٦.
(١٢٨) البقرة/١٠٩.
(١٢٩) البقرة/١٢٠.
(١٣٠) البقرة/١٣٣.
(١٣١) البقرة/١٤٥.
(١٣٢) البقرة/١٢٠.
(١٣٣) البقرة/١٥٩.
(١٣٤) البقرة/١٦٤.

وقوله: (وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاق).(١٣٥) وقوله: (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ)(١٣٦) قال(من بعد)بينما في اية اخرى قال: (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ).(١٣٧) دون(من) .

وقوله تعالى: (وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ)(١٣٨) وقوله: (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ).(١٣٩) وقوله: (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ)(١٤٠) وقوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى).(١٤١)

وقوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)(١٤٢)

فانظر كيف ان(من)هذه ظاهرة في الاسلوب القراني في هذه السورة، بل قد تتكرر في اية واحدة نحو ما ذكرنا من قوله تعالى: (وما تنفقوا من خير) تكررت في اية واحدة مرتين. وقوله: (وما انفقتم من نفقة او نذرتم من نذر)مرتين وقوله: (قل ما انفقتم من خير...وما تفعلوا من خير)مرتين في اية واحدة.وقوله: (وما يعلمان من احد...وما هم بضارين من احد...ماله في الاخرة من خلاق)ثلاث مرات في اية واحدة.وقوله: (يرونكم من بعد ايمانكم...من بعد ما تبين لهم)مرتين في اية واحدة.وقوله: (وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة)مرتين.

فهل ورود زيادة(من)في قوله(ويكفر عنكم من سيئاتكم)الا تالفا مع كل هذا الذي يذكر– انه اعجاز.

ولم يكن هذا الذي تكرر لغاية النظم حسب وانما لمعنى يقتضيه كل سياق. قال الكرماني: فقوله: (فأتوا بسورة من مثله)بزيادة(من)في سورة البقرة وفي غيرها(بسورة مثله)لان(من)تدل على التبعيض،ولما كانت سورة البقرة سنام القران واوله بعد الفاتحة، حسن دخول(من)فيها ليعلم ان التحدي واقع على جميع سور القران.(١٤٣)

وعلل الغرناطي هذه الزيادة والفرق بين العبارتين: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ)(١٤٤) في سورة البقرة وقوله: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ)(١٤٥) في سورة يونس.

يقول: فكانه قد مثل: ان شككتم في نبوته أي نبوة محمد ﷺ وتخصيصنا اياه بذلك،فلتاتوا برجل منكم غيره يصدر منه، او ياتي بسورة واحدة من نمط ماسمعتم من محمد ﷺ وائتوا بشهداء يشهدون ان غيره قد سمع منه ما طلبتم به.

---

(١٣٥) البقرة/٢٠٠.

(١٣٦) البقرة/٢٠٩.

(١٣٧) البقرة/١٨١.

(١٣٨) البقرة/٢١١.

(١٣٩) البقرة/٢١٣.

(١٤٠) البقرة/٢٣٠.

(١٤١) البقرة/٢٤٦.

(١٤٢) البقرة/٢٥٣.

(١٤٣) اسرار التكرار:٢٤.

(١٤٤) البقرة/٢٣.

(١٤٥) يونس/٣٨.

واما الوارد في سورة يونس فانما اريد به ما يجري مع قوله: (ام يقولون افتراه)فقيل لهم: اذا كان مفترى كما تزعمون فما المانع لكم عن معارضته فاتوا بسورة مماثلة للقران(١٤٦) فيلاحظ ان(من)في اية البقرة(تبعيضية)وقعت مناسبة للمعنى المذكور ولا يمكن حذفها، اما اية يونس فلا يمكن وضع(من)في سياقها لانه لايقتضيه السياق ولايتقبله.

اما عن زيادة(من)في قوله تعالى في سورة البقرة(ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم)وحذفها في موضع اخر من السورة: (ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم)

فان(من)في الاية جاءت لابتداء الغاية، لان تقديره: من الوقت الذي جاءك فيه العلم بالقبلة، لان القبلة الاولى نسخت بهذه الاية في قوله: (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ).(١٤٧) وليست الاية الاخرى مؤقتة بوقت(١٤٨) . فلا يتناسب غير الوارد ولا تتآلف مع المعنى المراد غير الالفاظ المذكورة التي يقتضيها المعنى والسياق.

وقد وصف الله سبحانه الظالمين في الاية(انك اذا لمن الظالمين)بقوله: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(١٤٩) ثم قال مخاطبا الرسول ﷺ : (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ).(١٥٠)

بينما قال في سورة ال عمران: (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)(١٥١)

لان في سورة البقرة جاء متالفا مع اول القصة: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا).(١٥٢) بنون التوكيد،فاوجب الازدواج ادخال النون في الكلمة، فيصير التقدير: فلنولينك قبلة ترضاها فلا تكونن من الممترين.والخطاب في الايتين للنبي ﷺ والمراد به غيره(١٥٣) فتطابقت الالفاظ وتالفت في ازدواج بديع، اما اية ال عمران: فجاءت على الاصل ولم يكن فيها ما اوجب ادخال نون التوكيد في الكلمة.

ومن التطابق في الالفاظ قوله تعالى في اية الوصية:(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ،فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).(١٥٤) قال: (ان الله سميع عليم)فخص السمع بالذكر،لما في الاية من قوله: (فمن بدله بعد ما سمعه)ليكون مطابقا.

---

(١٤٦) ملاك التاويل: ١٨٣.
(١٤٧) البقرة/١٤٥.
(١٤٨) ينظر: اسرار التكرار:٣٤.
(١٤٩) البقرة/١٤٦.
(١٥٠) البقرة/١٤٧.
(١٥١) ال عمران/٦٠.
(١٥٢) البقرة/١٤٤.
(١٥٣) اسرار التكرار: ٥٠.
(١٥٤) البقرة/١٨٠-١٨١.

وقال في الاية الاخرى بعدها: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).(١٥٥) لقوله قبله: (فلا اثم عليه)فهو مطابق معنى له(١٥٦) وذلك في قوله: (فَمن خاف من موص جنفا او اثما فاصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم)فما اعظم كلمات الله.وما ابلغها من ايات وما اجلها من سور وما اعجزه من قران.

ومثلما تآلف الفاصلة السابقة(ان الله سميع عليم)مع ما قبلها في ذكر السمع،لان الاستماع الى الوصية مطلوب، ومثلما تالفت فاصلة(ان الله غفور رحيم)مع المعنى قبلها تالفت ايضا الفاصلة وتناسبت الالفاظ في قوله تعالى في سورة النساء: (إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً).(١٥٧) وفي سورة الاحزاب: (إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً).(١٥٨) قال في النساء: (ان تبدوا خيرا)وفي الاحزاب: (ان تبدوا شيئا)ما الفرق؟.

وفي اية النساء قال: (فان الله كان عفوا غفورا)مختتما الاية.

واية الاحزاب ختمها بقوله: (فان الله كان بكل شيء عليما)فما موجب هذا الاختلاف؟

وزاد في النساء(او تعفوا عن سوء)لماذا؟

وتعليل ذلك–والله اعلم–ان قوله: (ان تبدوا خيرا او تخفوه)في اية النساء،مقصود به طرف الخير وعمل البر،جريا على ما دارت عليه سورة النساء وتردد فيها من اصلاح ذات البين، والندب على العفو،والتجاوز عن السيئات الا ترى قوله تعالى لمقتسمي الميراث فيمن حضرهم من ذوي القربى وذوي الحاجات: (فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً).(١٥٩) وقوله في الاتين الفاحشة: (فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا).(١٦٠) وقوله في المعروف بالنساء: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ).(١٦١) وقوله فيهن: (فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً).(١٦٢) وقوله(: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُم).(١٦٣) وقوله: (وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً).(١٦٤) الى امثال هذه الاي مما يطول ذكره،ولا يكثر في غير هذه السورة ككثرته فيها،ومن هنا لم يتعرض فيها لاحكام الطلاق،وان كانت السورة مبنية على احكام النساء لكن خص من ذلك ما فيه التالف والاصلاح وما يرجع الى ذلك،ولم يرد فيها من احكام الطلاق الا ما اشار اليه قوله تعالى: (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ)(١٦٥) فذكر هذا القدر عند استدعاء معنى الكلام وتمام المقصود به اليه باوجز لفظ، وبما يؤنس الفريقين، ولم يذكر فيها اللعان ولا الظهار ولا

---

(١٥٥) البقرة/١٨٢.
(١٥٦) اسرار التكرار:٤٠.
(١٥٧) النساء/١٤٥.
(١٥٨) الأحزاب/٥٤.
(١٥٩) النساء/٨.
(١٦٠) النساء/١٦.
(١٦١) النساء/١٩.
(١٦٢) النساء/٣٤.
(١٦٣) النساء/٦٣.
(١٦٤) النساء/١٢٩.
(١٦٥) النساء/١٣٠.

الخلع ولا طلاق الثلاث بل ذكر فيها استصحاب العشرة إلى التوارث فلما كان مبنى السورة على هذا ناسب طرف الخير غير مشار الى ضده الا بالعفو عما وقع بالمكلف فيه، فقال تعالى: (ان تبدوا خيرا او تخفوه او تعفوا عن سوء) فنوسب بهذا الخصوص ما تكرر في السورة بما ذكر من العفو وما يحرزه.

وفي سورة البقرة: (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى).(١٦٦) وذلك في مثل ما تقدم هنا من احكام النساء.

واما اية الأحزاب: (ان تبدوا شيئا او تخفوه فان الله كان بكل شيئا عليما).فمقصود بها ما يعم الطرفين من الخير والشر،الا ترى ما تقدمها من قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدا).(١٦٧) وما تقدم في هذه السورة من ذكر المنافقين وسوء مرتكبهم في قصة الاحزاب،وقولهم: (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورا).(١٦٨) وقولهم في الاستئذان: (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ).(١٦٩) وكذبهم في ذلك فحذر الله المؤمنين من مرتكبات المنافقين واعلمهم انه تعالى لايخفى عليه شيء: (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ)(١٧٠) فقال تعالى: (ان تبدوا شيئا او تخفوه)فلما قصد في هذه الاية عموم الطرفين ورد بلفظ مطلق يعم الخير والشر فقال تعالى: (ان تبدوا شيئا)فقال: (شيئا)في اطلاقها على الخير والشر،واما لفظ (خيرا)في (ان تبدوا خيرا)في اية التاء،فقد تقدم خصوصه ومناسبة،فورد كل على ما يجب ويناسب.

اما موجب قوله في فاصلة اية النساء: (فان الله كان عفوا قديرا)وفي فاصلة اية الاحزاب: (فان الله كان بكل شيء عليما).

فقوله: (فان الله كان عفوا قديرا)فنزل على قوله: (او تعفوا عن سوء)فهو مطابق له،فندب العباد الى العفو باعلامهم ان تلك سنة الله في خلقه من عفوه عن المسيء مع القدرة على اخذه والانتقام منه: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ).(١٧١) وهذا الجواب لقوله تعالى: (او تعفوا عن سوء)يفهم جواب الامرين من ابداء الخير واخفائه،وان ذلك يحبه تعالى ويثيب عليه(١٧٢) وبهذا وضح التناسب وبان التالف، وقوله تعالى: (فان الله كان بكل شيء عليما)يناسب(ان تبدوا شيئا او تخفوه)فتالفت كل لفظه مع سياقها في ارادة المعنى المراد توصيله واستيعابه ليكون موعظة من القران وما اعظم مواعظ القران وهي تقرع القلوب والأذهان قبل ان تقرع الأسماع والأبصار.

ومن تناسب وائتلاف الفاصلة مع الاية في المعنى قوله تعالى: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ).(١٧٣)

---

(١٦٦) البقرة/٢٣٧.
(١٦٧) الاحزاب/٥٣.
(١٦٨) الاحزاب/١٢.
(١٦٩) الاحزاب/١٣.
(١٧٠) الرعد/١٠.
(١٧١) فاطر/٤٥.
(١٧٢) ينظر:ملاك التاويل:١/٣٦١.
(١٧٣) هود/٨٧.

فانه لما تقدم في الاية ذكر العبادة، وتلاه ذكر التصرف في الاموال اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب، لان الحلم: العقل الذي يصح به تكليف العبادات ويحض عليها، والرشد حسن التصرف في الاموال.(١٧٤)

وعلى هذا التناسب والائتلاف تجري فواصل الايات، وقد تاتي متناسبة مع الالفاظ ونظم الكلام ونسق خواتم الايات او تاتي متناسبة مع المعنى في سياق الايات .

والذي ياتي مناسبا لنظم الكلام لاينفرد له وانما لمعنى يقتضيه ذلك النظم ايضا، نحو قوله تعالى: (ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ).(١٧٥) وفي الاية بعدها: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ).(١٧٦)

قال في نهاية الاية الاولى: (عذاب اليم)وفي نهاية الثانية: (عذاب مهين)لان الاولَ متصل بضّده وهو الايمان، فتوعد على الكفر بالعذاب الاليم الذي هو جزاء الكافرين.

والثاني: متصل بقوله: (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم)وهو الاذلال والاهانة، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال: (مهين).

ومنه ايضا قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ).(١٧٧)

وبعده: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ).(١٧٨)

لان الاول متصل بقوله: (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ).(١٧٩) لانهم يرون الظاهر ولا يفقهون علم ما استتر عليهم، والفقه: معرفة ظاهر الشيء وغامضه بسرعة فطنه فنفى عنهم ذلك.

والثاني: متصل بقوله: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى).(١٨٠)

أي: لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا(١٨١)

ومنه ايضا قوله تعالى في سورة المائدة: (وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).(١٨٢)

وفي النحل: (كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ).(١٨٣)

ان اية المائدة خطاب للمؤمنين بما يجب عليهم من الطهارة لصلاتهم وتعليم لهم كيفية عملهم في ذلك وانعام عليهم برخصة التيمم اذا عدموا الماء، وكل هذا مستوجب للشكر لله سبحانه فقيل في ختام هذه الاية: (لعلكم تشكرون).

---

(١٧٤) معترك الاقران:٣٢/١.
(١٧٥) المجادلة/٤.
(١٧٦) المجادلة/٥.
(١٧٧) الحشر/١٣.
(١٧٨) الحشر/١٤.
(١٧٩) الحشر/١٣.
(١٨٠) الحشر/١٤.
(١٨١) ينظر: اسرار التكرار:٢٠٢-٢٠٣.
(١٨٢) المائدة/٦.
(١٨٣) النحل/٨١.

واما اية النحل: فان السورة كلها مكية الا ايات من اخرها، وغالب حالها انها خطاب لكفار قريش ومن كان مثلهم، الا ترى افتتاحها بقوله تعالى: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)(١٨٤) وانما هذا خطاب للمرتابين في الساعة تكذيبا وكفرا ثم قال: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).(١٨٥) وقوله بعد: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ).(١٨٦) وقوله : (والذين تدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون).(١٨٧) الى ما بعد، ثم قال: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ).(١٨٨) ثم قال: (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ).(١٨٩) وقال: (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).(١٩٠) ثم قال: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ).(١٩١) ثم قال: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ).(١٩٢) وعلى هذا استمرت ايات سورة النحل وقد تخللها تذكيرهم بانعام الله عليهم كثير الى قوله: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانا).(١٩٣) وكل هذا تذكير بعجائبه، ثم اعقب ذلك بقوله: (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلَمون)أي: تدخلون في دين الاسلام، فهذا اوضح تناسب والسورة مكية(١٩٤) ولا تصلح غير هذه الالفاظ في نهاية الايتين. فوضعت كل لفظة في مكانها المناسب للسياق او موضع السورة.لذلك يقول الخطيب الاسكافي:

(اذا اورد الحكيم تقدست أسماؤه اية على لفظة مخصوصة، ثم اعادها في موضع اخر من القران،وقد غير منها لفظة عما كانت عليه في الاولى،فلا بد من حكمة هنالك تطلب،فاذا ادركتموها فقد ظفرتم،وان لم تدركوها،فليس لانه لاحكمة هنالك بل جهلتم)(١٩٥)

من هذه الالفاظ ما يقع في خواتم الايات ايضا نحو قوله تعالى:

في سورة هود: (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ)(١٩٦)

وفي سورة النحل: (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(١٩٧)

ففي سورة هود (الاخسرون)وفي النحل(الخاسرون)

---

(١٨٤) النحل/١.
(١٨٥) النحل/١.
(١٨٦) النحل/١٧.
(١٨٧) النحل/٢٠.
(١٨٨) النحل/٢٤.
(١٨٩) النحل/٢٦.
(١٩٠) النحل/٣٧.
(١٩١) النحل/٣٨.
(١٩٢) النحل/٦٢.
(١٩٣) النحل/٨١.
(١٩٤) ينظر: ملاك التاويل:٣٧٣/١.
(١٩٥) درة التنزيل:٢٠.
(١٩٦) هود/٢٢.
(١٩٧) النحل/١٠٩.

ذلك لان اية هود قد تقدمها ما يفهم المفاضلة، الا ترى ان قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ).(١٩٨) يفهم من سياقها ان المراد: افمن كان على بينة من ربه كمن كفر وجحد وكذب الرسل ثم اتبع هذا بقوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً)(١٩٩) فهذا صريح مفاضلة ثم استمرت الاي على وصف من ذكر، وعرضهم على ربهم وقول الاشهاد (هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ،الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)(٢٠٠) الى ذكر مضاعفة العذاب لهم،واستمر ذكرهم،الى قوله:(لاجرم انهم في الاخرة هم الاخسرون)فناسب لفظ(الاخسرين)بصيغة التفاضل ومقصود التفاوت.

اما اية النحل: فلم يقع قبلها المفاضلة والتفاوت، ولا ما يفهمها، وانما قبلها: (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).(٢٠١) وقوله: (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ).(٢٠٢) وبعد هذا: (وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).(٢٠٣) وبعده: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ).(٢٠٤)

ومن ذلك قوله تعالى في سورة ابراهيم: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ).(٢٠٥) وقال في سورة النحل: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢٠٦)

جاء في معترك الاقران: خصّ سورة ابراهيم بوصف المنعم عليه، وسورة النحل بوصف المنعم، لانه في سورة ابراهيم في مساق وصف الانسان.وسورة النحل في مساق صفات الله وثبات الوهيته(٢٠٧) أي: ان الايات المكتنفة للاية في سورة ابراهيم تتحدث عن الانسان، اما الاية في سورة النحل فيكتنفها ما يتعلق بصفات الله سبحانه.

وقوله تعالى في سورة الجاثية: (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ).(٢٠٨) وفي سورة فصلت : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).(٢٠٩)

ونكتة ذلك ان قبل الاية الاولى: (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ).(٢١٠) فناسب الختام بفاصلة البعث، لان قبله وصفهم بانكاره، واما الثانية: فالختام فيها مناسب، لانه لايضيع عملا صالحا ولا يزيد على عمل عملا سيئا.(٢١١)

---

(١٩٨) هود/١٧.
(١٩٩) هود/١٨.
(٢٠٠) هود/١٨-١٩.
(٢٠١) النحل/١٠٤.
(٢٠٢) النحل/١٠٥.
(٢٠٣) النحل/١٠٧.
(٢٠٤) النحل/١٠٨.
(٢٠٥) ابراهيم/٣٤.
(٢٠٦) النحل/١٨.
(٢٠٧) معترك الاقران: ٣٥/١.
(٢٠٨) الجاثية/١٥.
(٢٠٩) فصلت/٤٦.

ومثل هذا الائتلاف في الفواصل او غيرها ما يسمى بالمواخاة المعنوية، وهي تاتي مطابقة على ما سبق من الكلام وفيها كثير في فواصل ايات القران الكريم من ذلك قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ).(٢١٢)

فقد انتهت الاية بقوله: (لَطيف خبير)لما فيها من المطابقة لمعناها، لأنه ضمنها ذكر الرحمة للخلق بانزال الغيث لما فيه من المعاش لهم ولانفسهم، فكان لطيفا بهم خبيرا بمقادير مصالحهم.

وقد يسمى هذا التناسب والائتلاف بمراعاة النظير عند البلاغيين او يسمى بـ(تشابه الاطراف): وهو ان يختم الكلام بما يناسب اوله في المعنى.(٢١٣)

كقوله تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ).(٢١٤) فان اللطيف يناسب مالا يدرك بالبصر، والخبرة تناسب من يدرك شيئا فان من يدرك شيئا يكون خبيرا به.

وقوله تعالى: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).(٢١٥)

فانه قال: (الغني الحميد)لينبه على ان ماله ليس لحاجة بل هو غني عنه جواد به، فاذا جاد به حمده المنعم عليه.(٢١٦)

وتناسب الاطراف لاينحصر في مناسبة خاتمة الاية مع موضوعها.وانما يشمل ايضا فاتحة السورة وخاتمتها او فاتحة السورة وخاتمة السورة قبلها او فاتحة السورة وفاتحة السورة بعدها او غيرذلك نحو:

قوله تعالى في فاتحة سورة الاسراء: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ..)

وقوله تعالى في فاتحة سورة الكهف: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ).

فافتتحت سورة الاسراء بالتسبيح(سبحان)

وافتتحت سورة الكهف بالتحميد(الحمد لله)

لان التسبيح حيث جاء مقدم على التحميد، يقال: سبحان الله والحمد لله.

جاء في البرهان وذكر الشيخ كمال الدين الزملكاني في بعض دروسه مناسبة التسبيح والتحميد في اول السورتين ما ملخصه:

ان سورة(الاسراء)افتتحت بحديث الاسراء، وهو من الخوارق الدالة علىصدق رسول الله ﷺ وانه رسول من عند الله، والمشركون كذبوا ذلك، وقالوا: كيف يسير ليلة من مكة الى بيت المقدس؟ وعادوا ونعتوا وقالوا:صف لنا بيت المقدس،فرفع له حتى وصفه لهم، والسبب في الاسراء اولا لبيت المقدس ، ليكون ذلك دليلا على صحة قوله بصعود السماوات، فافتتحت بالتسبيح تصديقا لنبيه فيما ادعاه، لان تكذيبهم له تكذيب عناد، فننزه نفسه قبل الاخبار بهذا الذي كذبوه.

---

(٢١٠) الجاثية/١٤.
(٢١١) معترك الاقتران: ٣٥/١.
(٢١٢) الحج/٦٣.
(٢١٣) ينظر: التلخيص:٣٥٤.
(٢١٤) الانعام/١٠٣.
(٢١٥) الحج/٦٤.
(٢١٦) التلخيص:٣٥٤.

واما الافتتاح بالتحميد في اول سورة الكهف: فانه لما احتبس الوحي وارجف الكفار بسبب ذلك، انزل الله ردا عليهم، وانه لم يقطع نعمه عن نبيه ﷺ بل اتم عليه بانزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة(٢١٧) فسبحان الله والحمد لله على ما انعم فهيأ من عباده من يخرج الحكمة من كتابه العزيز ثم الحمد لله.

واذا كان هذا بالنسبة الى السور، فما ظنك بالايات وتعلق بعضها ببعض؟بل عند التامل يظهر ان القران كله كالكلمة الواحدة.

فمن لطائف سورة الكوثر انها كالمقابلة للتي قبلها وهي (سورة الماعون)لان سورة الماعون قد وصف الله فيها المنافق بامور اربعة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها،ومنع الزكاة.

فذكر في سورة الكوثر في مقابلة البخل: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ). أي: الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة: (فصل)أي: دم عليها،وفي مقابلة الرياء: (لربك)أي: لرضاه لاللناس، وفي مقابلة منع الماعون: (وانحر)واراد به التصدق بلحم الأضاحي، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة.(٢١٨)

فاستقصت سورة الكوثر على قصرها مقابلة كل ما وصف المنافق به في سورة الماعون وقد يكون الاستقصاء في ايات في ذكر قصة او غيرها،فتستقصي المعاني على الترتيب في هذه الايات الى ان لايترك فيها ما يقتضيه المعنى، كقوله تعالى: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَت).(٢١٩)

فانه لو اقتصر على قوله(جنة)لكان كافياً، ولكنه لم يقف عند ذلك، وانما استقصى فقال: (من نخيل واعناب)ثم زاد(تجري من تحتها الانهار)ثم اضاف: (له فيها من كل الثمرات)وقال في وصف صاحبها: (واصابه الكبر)ثم استقصى المعنى بما يوجب تعظيم المصاب بقوله: (وله ذرية ضعفاء)ثم اصاب الجنة : (اعصار فيه نار فاحترقت)(٢٢٠) فلما استقصى في الاول كان مقتضى الحال ان يستقصي في الثاني.

ومن الاستقصاء في الترتيب– وهو ما يحسن ختم هذا البحث به ما جاء في سورة الصافات من استقصاء السلام على كل مرسل في السورة.

عندما قال تعالى في هذه السورة: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ،فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)(٢٢١) ثم قال: (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)(٢٢٢) ليتخلص في هذه العبارة الى ذكر الانبياء من عباده المخلصين. فذكر عقب هذه العبارة نوحا عليه السلام فقال: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ).(٢٢٣) ثم ذكر قصته باختصار ثم قال: (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ).(٢٢٤)

---

(٢١٧) ينظر:البرهان في علوم القران:٦٥/١.
(٢١٨) م.ن:٦٦/١.
(٢١٩) البقرة/٢٦٦.
(٢٢٠) تحرير التحبير: ٥٤٠،بديع القران:٢٤٧.
(٢٢١) الصافات/٧٢-٧٣.
(٢٢٢) الصافات/٧٤.
(٢٢٣) الصافات/٧٥.
(٢٢٤) الصافات/٧٩.

ثم ذكر ابراهيم عليه السلام بقوله: (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ).(٢٢٥) ثم ذكر مفصلا قصته ثم قال: (سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ).(٢٢٦)

ثم ذكر موسى هارون بقوله: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ)(٢٢٧)

ثم ذكر الياس بقوله: (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ).(٢٢٨) ثم ذكر قصته ثم قال: (سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ) فيمن جعله لغة في الياس.(٢٢٩)

ولم يقل في قصة لوط ولا الياس: (سلام)لانه لما قال:(وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)(٢٣٠)

: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)(٢٣١)

(وان الياس لمن المرسلين)

فقد قال: سلام على كل واحد منهم لقوله في اخر السورة (وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)(٢٣٢) فلما لم يخص بعضهم بالسلام أطلق هذه العبارة ليعم الجميع مراعاة لمقتضى الحال في بلاغة الكلام. والحمد لله رب العالمين

المصادر

القران الكريم.

الاتقان في علوم القران–السيوطي:ت٩١١هـ،تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم–مطبعة المشهد الحسيني–مصر ط١/١٣٨٧هـ–١٩٦٧م.

الاساليب البلاغية في خواتم السور القرانية–عباس حميد السامرائي–اشراف: د.حسن يحيى الخفاجي،كلية التربية– جامعة الانبار/١٩٩٦م.

اسرار التكرار في القران الكريم،محمود بن حمزة بن نصر الكرماني: ت:٥٠٥هـ.تحقيق: عبد القادر احمد عطا،دار بو سلامة للطباعة والنشر/تونس ط١/١٩٨٣م.

الاقصى القريب في علم البيان– التنوخي،ت:٧٤٩ هـ،مطبعة دار السعادة،مصر ١٣٢٧هـ.

الانتصاف على هامش الكشاف– ابن المنير الايكندري–ت:٦٨٣هـ.

انوار التنزيل واسرار التأويل–البيضاوي–ت:٧٩١هـ ط١–مطبعة محمد علي صبيح،١٣٤٢هـ.

انوار الربيع في انواع البديع–ابن معصوم المدني،ت:١١٢٠هـ،تحقيق:شاكر هادي شكر–مطبعة النعمان–النجف/ط١/١٩٦٨م.

الايضاح في علوم البلاغة–للخطيب القزويني،ت:٧٣٩هـ،مطبعة السنة المحمدية،القاهرة(د.ت).

---

(٢٢٥) الصافات/٨٣.

(٢٢٦) الصافات/١٠٩.

(٢٢٧) الصافات/١١٤.

(٢٢٨) الصافات/١٢٣.

(٢٢٩) ينظر: اسرار التكرار:١٨٠.

(٢٣٠) الصافات/١٣٣

(٢٣١) الصافات/١٣٩.

(٢٣٢) الصافات/١٨١.

البحر المحيط-ابن حيان الاندلسي،ت: ٧٥٤،مكتبة النصر الحديثة،الرياض(د.ت).
براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور-د.محمد بدري عبد الجليل-المكتب الاسلامي-بيروت،ط١٩٨٠،١م.
البرهان في علوم القران-الزركشي-ت:٧٩٣هـ،تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم-دار المعرفة-بيروت-ط٢(د.ت).
بدائع الفوائد- ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي،بيروت(د.ت).
بديع القران- ابن ابي الاصبع المصري،ت:٦٥٤هـ،تحقيق: حفني شرف،مكتبة نهضة مصر،ط١،١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.
البلاغة عند السكاكي-د.احمد مطلوب-مطبعة دار التضامن-بغداد،ط١٩٦٤،١م.
بلاغة الكلمة في التعبير القراني-د.فاضل صالح السامرائي،دار عمار للنشر،عمان-الاردن،ط١٤٢٠،١هـ-١٩٩٩م.
البيان والتبيين-الجاحظ-ت:٢٥٥هـ،تحقيق:عبد السلام محمد هارون،مكتبة الجاحظ-بيروت(د.ت).
تأويل مشكل القران-ابن قتيبة،ت: ٢٧٦هـ،تحقيق: السيد احمد صقر-دار احياء الكتاب العلمية،مصر-مطبعة عيسى البابي الحلبي(د.ت).
التبيان في اقسام القران- لابن قيم الجوزية،تحقيق: محمد حامد الفقي،مطبعة حجازي،ط١-١٣٥٢هـ.
تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القران – لابن ابي الاصبع المصري، تحقيق: حقي محمد شرف-لجنة احياء التراث الاسلامي-القاهرة-١٣٨٣هـ.
التعبير القراني-د.فاضل صالح السامرائي،دار الكتب للطباعة والنشر-جامعة الموصل،١٩٨٧م.
تفسير القرطبي(الجامع لاحكام القران) محمد بن احمد الانصاري القرطبي،ت:٦٧٢هـ، دار احياء التراث العربي،بيروت،(د.ت).
التفسير الكبير ومفاتح الغيب-فخر الدين الرازي،ت: ٦٠٤هـ،دار الفكر،بيروت، ط١٤٠٥،٣هـ-١٩٨٥م.
التلخيص في علوم البلاغة- الخطيب القزويني،ت:٧٣٩هـ،تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي،دار الكتاب العربي-بيروت(د.ت).
تيجان البيان في مشكلات القران-محمد امين بن خير الله الخطيب،ت:١٢٠٣هـ،تحقيق: حسن مظفر الرزو،مطابع جامعة الموصل،ط١٩٨٥،١م.
جامع البيان في تفسير القران-الطبري-ت:٣١٠هـ،تحقيق: محمود شاكر،مراجعة احمد شاكر،دار المعرفة،بيروت،١٩٧٨م.
خزانة الادب وغاية الارب-ابن حجة الحموي،دار القاموس الحديث للطباعة والنشر،بيروت،(د.ت).

درة التنزيل وغرة التأويل-الخطيب الاسكاني-ت: ٤٢٠هـ،برواية ابن ابي الفرج الاردستاني،دار الافاق الجديدة،بيروت ط١٩٧٧،٣م.

روح المعاني في تفسير القران الكريم- لشهاب الدين السيد محمود الالوسي-الطباعة المنيرية،دار احياء التراث العربي(د.ت).

الصورة السمعية ودلالتها البلاغية في القران الكريم-عباس حميد السامرائي-جامعة بغداد-اشراف.د.فائز طه عمر ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز- ابن حمزة العلوي-ت:٧٤٩هـ،مطبعة المقتطف-مصر ١٣٣٢هـ-١٩١٤م.

عروس الافراح:

الفوائد في مشكل القران-عز الدين بن عبد السلام، ت: ٦٦٠هـ،تحقيق: سيد رضوان علي الندوي،المكتبة العصرية، الكويت ١٢٨٧هـ.

في ظلال القران-سيد قطب،دار احياء التراث العربي-بيروت، ط٢ ١٩٨٧م.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل،الزمخشري،دار المعرفة،بيروت(د.ت).

لسان العرب- ابن منظور- المطبعة الميرية بولاق-مصر ط١ ١٣٠٠هـ.

لمسات بيانية في نصوص من التنزيل-د.فاضل صالح السامرائي-دار الشؤون الثقافية ،بغداد/١٩٩٨م.

المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر-ضياء الدين بن الاثير-ت:٦٣٧هـ،تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد،مطبعة البابي الحلبي،القاهرة،١٣٥٨هـ.

معترك الاقران-السيوطي-تحقيق: احمد شمس الدين،دار الكتب العلمية،بيروت، ط١٤٠٨،١هـ-١٩٨٨م.

معجم المصطلحات البلاغية وتطورها-د. احمد مطلوب-مطبعة المجمع العلمي العراقي-١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

مفتاح العلوم-السكاكي،ت: ٦٢٦هـ،تحقيق: اكرم عثمان يوسف-دار الرسالة-بغداد/ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨١م.

ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل – احمد بن الزبير الغرناطي،ت: ٧٠٨هـ،تحقيق: سعيد الفلاح-دار المغرب الاسلامي-ط١ ١٤٠٣هـ.

من بلاغة القران- د.احمد احمد بدوي-القاهرة ط٣ ١٩٥٥م.

من روائع القران –د. محمد سعيد رمضان البوطي،مكتبة الفارابي ،دمشق،١٩٧٠م.

نقد الشعر-قدامة بن جعفر،ت: ٣٣٧هـ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية- بيروت(د.ت).